من الأسلحة الحربية الثقيلة

المدفع

حضور تاريخي وغياب معجمي تراثي

د. أحمد محمود الخضري

www.alukah.net
شبكة الألوكة

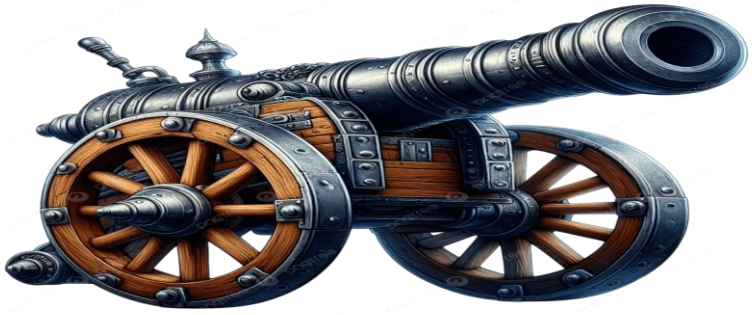

من الأسلحة الحربية الثقيلة (المِدْفَعُ)

حضور تاريخي وغياب معجمي تراثي

د. أحمد محمود الخضري

عضو هيئة تدريس بقسم أصول اللغة

جامعة الأزهر

شبكة الألوكة - قسم الكتب

من الأسلحة الحربية الثقيلة (المِدْفَـعُ)

حضور تاريخي وغياب معجمي تراثي

شَكَّلَت المَدَافع ـ تلك الآلة المعهودة للحرب التي تُدْفَع أو تُرْمَي بها القذائف ـ عبر التاريخ العمود الفِقْرِيّ للجيوش، واستحقَّت لقب ملكة المعارك ؛ لدورها الحاسم في تغيير موازين القوى وتدمير تحصينات الأعداء من مسافات بعيدة، ولا زالت هذا الآلة الحربية ـ مع تطورها المستمر ـ تؤدي دورًا مهما وفعالا في ساحات وميادين المعارك والحروب، بوصفها القوة النارِيَّة الضاربة الأساسية للقوات البرية أكبر أفرع القوات المسلحة، والمسؤول عن الدعم الناري بعيد المدى وتدمير تحصينات العدو.

والمِدْفَع ـ بكسر الميم ـ اسم آلة على زنة (مِفْعَل)، لفظ عربيٌّ محض يرجع في أصل اشتقاقه إلى الجذر اللغوي (د ف ع) وقد وقف ابن فارس في مقاييسه على الدلالة الأصلية لهذا الجذر ونَصَّ على أنها: تَنْحِيَة الشيء أي: إبعاده وإزالته بقوة، فقال: "الدالُ والفاءُ والعينُ أصلٌ واحدٌ مشهور يدلُّ على تَنْحِية الشيء "[1]، ويجمع المِدْفَع على مَدَافِع.

ويذكر أحد المعجميين المحدثين أنَّ العَامة تفتح ميم المِدفَع فيقولون المَدْفَع ـ بالفتح ـ[2]، والصوابُ فيه كسر الميم؛ لأن من أوزان اسم الآلة مِفْعَل لا مَفْعَل.

وبمطالعة بعض المعجمات اللغوية التراثية والنظر فيها للوقوف على دلالة هذه الكلمة لاحظت ترددها بين معنيين ليس من بينها المعنى العسكري الذي عهدناه لها وهما: الدَّفُوع، أي: شديد الدَّفْع، ومن الأركان: الشديدُ القويُّ[3].

---

(١) مقاييس اللغة : ابن فارس (د ف ع) ٢/٢٨٨.

(٢) ينظر: محيط المحيط : بطرس البستاني (د ف ع) ص٢٨٥.

(٣) ينظر: ديوان الأدب : الفارابي (د ف ع) ، والمحكم والمحيط الأعظم : ابن سيدة ، ٢/٢٣

أما المِدْفَع بوصفه آلة الحرب المعروفة التي تُدْفَع أو تُرْمَي بها القذائف، ويستخدمها العسكريون في الحروب، فقد خلت من ذكرها المعجمات اللغوية التراثية فلم يؤثر مجيء تلك الدلالة فيما تَرَكَهُ له اللغويون القدامى من مصنفات معجمية، بالرغم من ورودها وذكرها في بعض المصادر التاريخية التي دونت في العصر المملوكي والذي يمتد من سنة ٦٤٨هـ وحتى ٩٢٣هـ وكذا العصر العثماني والذي يبدأ بنهاية حكم المماليك وقيام الدولة العثمانية سنة ٩٢٣هـ وحتى بداية العصر الحديث سنة ١٢٢٠هـ على وجه التقريب.

ومن أمثلة ورودها بين طيات بعض المصنفات التاريخية:

- قَالَ ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) يَحْكِي حِصَارَ الأَمِيرِ تَيْمُورَ لِقَلْعَةِ دِمَشْقَ:

"وَشَرَعَ هُوَ فِي حِصَارِ القَلْعَةِ، وَنَصَبَ الآلَاتِ لِذَلِكَ، مِنَ المَجَانِيقِ، وَالعَرَّادَاتِ لِلْحِجَارَةِ، وَالمَدَافِعِ لِنَفْطِ النَّارِ، وَسَلَّطَ عَلَى جُدْرَانِهَا أَيْدِيَ النَّقْبِ، وَأَحَاطَ بِذَلِكَ عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ جِهَةٍ"(١)

- وقال ابن حجي (ت٨١٦هـ) في تاريخه :

" ويوم الأربعاء حادي عشره وقع القتال أيضًا في الناحية الشرقية، والأمير نوروز مجدٌ في القتال وإزالة الذين على باب توما، ويرمون بالمدافع وأخربت الطاحون التي هناك وتلك الحوانيت "(٢).

- وقال عبد الملك العصامي المكي (ت١١١١هـ) في معرض حديثه عن فتح مصر على يد السلطان العثماني سليم الأول :

---

(١) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر (في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر): ابن خلدون، ٦٦٦/١٠.

(٢) تاريخ ابن حجي : شهاب الدين أحمد بن حجي الدمشقي ، ١٠٠٧/٢.

" وَسَار السُّلْطَان سليم حَتَّى نزل ببركة الْحَج وتهيأ مِنْهَا لفتح قلعة مصر وَأخذ الْبِلَاد... فَجمع طومان باي المدافع الْكَثِيرَة وأخرجها للريدانية وقررها فِي الأَرْض وَأرْسل إِلَى الْإِسْكَنْدَرِيَّة وَطلب من يضْرب بالمدافع... واستمرت مدافع الشراكسة مركوزة لمن يَأْتِي من أَمَام الريدانية بِلَا نفع وَلَا دفع، وبادرهم برمي المدافع والبنادق واستقبلته خُيُول الْجند وفرسانها وحمي الْوَطِيس حَتَّى أظلمت الدُّنْيَا" (١).

فمع هذه الشواهد التاريخية السياقية المبثوثة في تضاعيف هذه المؤلفات التاريخية وغيرها، والتي تشهد بصدق استعمال لفظ المدفع بتلك الدلالة الحربية في هذين العصرين إلا أن المعجمات اللغوية التي دُوِّنت في العصرين المملوكي والعثماني مثل: لسان العرب لابن منظور (ت٧١١هـ) والمصباح المنير للفيومي (ت ٧٧٠هـ) والقاموس المحيط للفيرزآبادي (ت ٨١٧هـ) والطراز الأول لابن معصوم المدني (ت١١١٩هـ) وتاج العروس للزَّبِيدي (ت ١٢٠٥هـ) ... وغيرها، قد أهملت تلك الدلالة العسكرية للفظ المِدفَع فلم تذكرها، وأغفلتها، ولم تثبتها ضمن دلالات لفظ المِدْفَع، بالرغم من مجيئها وترددها في بعض المصادر التاريخية التي أُلِّفَت في هذين العصرين، فهي من الدلالات التي ذكرتها كتب التاريخ وأهملتها المعجمات اللغوية التراثية.

ولعل هذا الإهمال المعجمي من قبل اللغويين القدامى لهذا المدلول العسكري وغيره يُعْزَى إلى أسباب متعددة، منها:

طبيعة المنهج المعجمي القائم على السماع والاحتجاج، وتركيز أصحاب

(١) سمط النجوم العوالي: عبد الملك بن حسين العصامي ٦٦/٤.

المعجمات على الفصيح الشائع، وتبني أكثرهم معيار التنقية اللغوية، فأعرضوا عن الألفاظ المولدة صيغة ودلالة وكذا الأعجمية وإن شاع استعمالها العسكري، وعدوا التطور الدلالي الذي يعترى بعض الألفاظ لونا من ألوان اللحن، فضلا عن محدودية المعرفة التقنية العسكرية لدى بعض المعجميين، والاعتماد على الشواهد القرآنية والحديثية والأدبية شعرا ونثرا، وإغفال النصوص التاريخية فلم يعتمدوا على كتب التاريخ، والمغازي، والفتوح ... ونحوها .

وفي ضوء هذه الشواهد التاريخية الدالة على استعمال لفظ المِدْفَع بهذا المدلول العسكري منذ العصر المملوكي، تبرز أهمية النصوص التاريخية في استكمال العمل المعجمي.

ويعد بطرس البستاني ـ فيما أعلم ـ أول مُعْجَمي في العصر الحديث قد صَرَّحَ بذكر المعنى العسكري لمصطلح المِدْفع وعزاه للمولَّدين، إذ قال : " المدفع عند المُوَلَّدِين آلة حربية تَقْذِف الكتل الحديدية على الأبراج كما يقذفها المنجنيق، فتهدم ما أصابتهُ منها "[1].

كما عَرَّفَ د/ حسن ظاظا المدفع بقولهِ: " المِدْفَع: هو آلة الحرب التي تَدْفَع القذيفة بعيدا بقوة انفجار البارود أو غيره من المتفجرات"[2].

(١) محيط المحيط : بطرس البستاني (د ف ع) ص٢٨٥ .

(٢) اللسان والإنسان: د/حسن ظاظا، ص٩٩.

ولعل السبب في تسمية تلك الآلة بالمِدْفَع يرجع إلى وظيفتها أي : عملها، أو خواصها وصفاتها في عملها، وطبيعة العمل الذي تقوم به وهو: دَفْعُ القذائفِ بقوة ورميها على الأعداء فتحدث خسائر في الأفراد، والمعدات والمنشآت، فهو من باب تسمية الشيء باسم وظيفته.

وفي عربيتنا المعاصرة ولغة الخطاب اليومي إذا أطلق لفظ المِدْفَع فلا يتبادر إلى الذهن سوى معناه العسكري، أما بقية دلالاته الأخرى فقد هُجِرَت وتلاشت من الاستعمال المعاصر.

د/ أحمد محمود الخضري

مدرس أصول اللغة بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بقنا

جامعة الأزهر

AhmedMohamed.4119@azhar.edu.eg